مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة

العدد الثامن
1991 م.

إرادة

الدكتور سعدون اسماعيل السويح
كلية اللغات ـ جامعة الفاتح ـ طرابلس

جاء في الصحاح[1] (الإرادة: المشيئة، وأصلها الواو لقولك راوده، إلا أنّ الواو سُكنت، فنقلت حركتها إلى ما قبلها، فانقلبت في الماضي ألفاً، وفي المستقبل ياءً، وسقطت في المصدر لمجاورتها الألف الساكنة، وعوض منها الهاء في آخره).

فالإرادة إذاً هي مصدر للفعل (أراد) بمعنى (شاء)، وهو مزيد من الفعل الثلاثي (راد) وفي اللسان (الرّودُ) مصدر فعل الرائد، والرائد الذي يرسل في التماس النجعة وطلب الكلأ والجمع روّاد، مثل زائر وزوّار. ويورد صاحب اللسان طائفة من المعاني لهذا الفعل أهمها معاني الطلب والاختبار والنظر والسؤال ومنه قولهم: راد الدار يرودها، أي: سألها[2].

والإرادة كما سبق المشيئة، وأراد الشيء شاءه، ومنه قوله تعالى: ﴿. . . **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** . . .﴾، [أنظر سورة البقرة، الآية: 185]، أي يشاء لكم اليسر ولا يشاء لكم العسر. والإرادة تكون للأمر المحبوب وغير المحبوب ومن الإرادة المحبوبة إرادة الله لعباده كما في الآية الكريمة، ومن الإرادة غير المحبوبة، إرادة الكفار إطفاء نور الله بأفواههم كما في قوله تعالى: ﴿**يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون**﴾، [سورة

(1) الصحاح، إسماعيل الجوهري، دار العلم للملايين ـ بيروت تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ـ (أنظر مادة رود).

(2) لسان العرب، جمال الدين محمد بن منظور، الجزء الثالث مادة: رَوَدَ دار صادر ـ بيروت.

التوبة، الآية: 32]، وكما سترد الإشارة فيما بعد، فإن الإرادة من الله سبحانه وتعالى تعني المشيئة المطلقة، اما عند نسبة الفعل إلى البشر فإنه يحمل معاني عديدة تتعلق إما بالمشيئة ـ بمعناها البشري المحدود ـ أو بالرغبة أو الميل أو النزوع أو الشوق، فعندما نقول: يريد فلان كذا فالمعنى الغالب هو: يرغب فلان في كذا أو يميل فلان إلى كذا.

ولقد ورد الفعل (أراد) بتصريفاته المختلفة في مواضع كثيرة جداً في القرآن الكريم.

والفعل (أراد) متعد بنفسه، وقد خَرَّجَ صاحب اللسان تعدية الشاعر لهذا الفعل بإلى في البيت:

إذا ما المرءُ كان أبوه عبسٌ فحسبك ما تريدُ إلى الكلام

بأن فيه معنى الذي (يحوجكَ) أو (يُجيئك) إلى الكلام[3]. أما أراده على الشيء، فمعناه ألزمه إياه أو حمله عليه، وهو بمعنى (أداره) كما يشير ابن منظور[4].

والإرادة لا يمكن أن تصدر على وجه الحقيقة إلّا من العاقلين، فالإرادة سواءٌ كانت بمعنى المشيئة أو الاختيار أو الرغبة أو الميل لا يمكن أن تصدر ـ بالمعنى الحقيقي ـ عن الجمادات، أما إرادة الحيوان فهي مرتبطة بردود الفعل الغريزية أكثر منها بالاختبار العقلي الواعي، فنحن مثلاً حين نرى كلباً يلهث ندرك أنه يريد أن يشرب، وحين نسمع قطة تموء في العراء ندرك أنها تريد أن تدخل، ونحو ذلك.

أما بالمعنى المجازي، فإن نسبة الإرادة والأفعال الإرادية، إلى الحيوان والجماد فكثير شائع، ولعل ذلك يعود في جوهره إلى رغبة الإنسان في (أنسنة ـ العالم من حوله، أي إضفاء الصفة الإنسانية أو البشرية على الجمادات والحيوانات.

ولقد دار جدل طويل في تاريخ الفكر الإسلامي حول نسبة أفعال العاقلين

---

(3) المصدر السابق ـ مادة ـ: رَوَد.

(4) المصدر السابق ـ مادة ـ: رَوَد.

كالإرادة إلى الجمادات، والتي ورد كثير منها في القرآن الكريم، وقد ذهب بعض أهل السنة إلى أن كثيراً من هذه الآيات يجب أن تحمل على وجه الحقيقة، وإن كانت كيفيتها غير معلومة لنا، فجهنم تنطق حقاً كما في قوله تعالى: ﴿**يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد**﴾، [سورة ق، الآية: 30]، وحديث السماء والأرض حديث حقيقي، كما في الآية الكريمة: ﴿**ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين**﴾، [سورة فصّلت، الآية: 11].

أمّا المعتزلة فقد توسعوا في المجاز، وذهبوا إلى تأويل جميع آيات القرآن الكريم التي نسبت فيها أفعال العاقلين إلى غير العاقلين على أنها تعبيرات مجازية تفقد فيها الألفاظ دلالاتها المعتادة لتكسب دلالات مجازية، وانسجاماً مع هذا الموقف يؤول المعتزلة كلام جهنم على أنه مجاز يراد به الإخبار عن سعتها وحديث السماء والأرض على أنه إشارة من الله عز وجل إلى خلقه وتكوينه لها، والآية الكريمة كما رأينا جاءت في معرض الإشارة إلى خلق السماء والأرض. وللمعتزلة تفسيرات أخرى كثيرة تعتمد على المجاز حاولوا من خلالها التشبث بموقفهم العقلي والرد على خصومهم[5].

ولقد وقف آخرون من قضية المجاز القرآني موقفاً وسطاً بحيث لم ينكروا وروده في القرآن واللغة بعامة، مع التحفظ في القول به في بعض المواضع ذات المساس الوثيق بالعقيدة كتلك التي أشرنا إليها سابقاً، ومن هذا الفريق المعتدل ابن قتيبة الذي لا يتحرج عن القول بالمجاز بل يكاد يعتبره ضرورة لغوية لا محيص عنها للمتكلم، أي أن المجاز ضرورة تعبيرية لا يستطيع المتكلم منها فكاكاً، وهو يقول في معرض رده على منكري المجاز في نحو قوله تعالى: ﴿. . . **فوجدا فيها جداراً يريد أن يَنْقَضَّ فأقامه** . .﴾، [سورة الكهف، الآية: 77]، . . . ولو قلنا للمنكر لقوله ﴿**جداراً يريد أن ينقض**﴾: كيف كنت أنت قائلاً في جدار رأيته على شفا انهيار:

---

(5) أنظر: د. ناصر حامد أبو زيد، الاتجاه العقلي في التفسير ـ دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة ـ دار التنوير للطباعة والنشر ـ الطبعة الثانية ـ 1983 (دراسة شاملة مُتَقَصِّية لقضية المجاز القرآني والتفسير العقلي بين المعتزلة وخصومهم).

رأيت جداراً ماذا؟ لم يجد بُدّاً من أن يقول: جداراً يهمُّ أن ينقض، أو يكاد أن ينقض، أو يقارب أن ينقض. وأياً ما قال فقد جعله فاعلاً، ولا أحسبه يصل إلى هذا المعنى في شيء من لغات العجم إلاّ بمثل هذه الألفاظ[6].

وينطوي موقف ابن قتيبة على إدراك عميق لطبيعة اللغة، وإنّ إسناد أفعال مثل الإرادة إلى الجمادات شائع في لغة العرب، ومن أمثلة ذلك ما يورده ابن منظور[7] من أشعارهم نحو قول الشاعر:

في مهمهٍ قلقت به هاماتها قلق الفؤوس إذا أردن نضولا

وقول شاعر آخر: ـ

يريد الرمحُ صدر أبي براءٍ ويعدل عن دماءِ بني عقيلِ

وفي هذا البيت الأخير معنى مجازي لطيف، حيث جعل الشاعر الرمح يتخير بإرادته صدر أبي براء، وينصرف عن دماء بني عقيل، فكأنَّهُ يطعن بمشيئته ويتخير لطعنته من يريد.

وإرادة صفة من صفات الله كالسمع والبصر والقدرة، وإرادة الله هي حُكمه ومشيئته، وهي قديمة قدم ذاته، نافذة في عباده، ولا تقع الإرادة عند نسبتها إلى الخالق عزّ وجل بمعنى الميل أو النزوع أو الشوق أو الرغبة، وما شابهها من المعاني التي يحتملها الفعل أراد عند وقوعه من البشر، لأنه تعالى غني عن كل نزوع وميل، فمتى تحيل (أراد) فمعناه أنه حكم أنه كذا، وليس بكذا[8].

ومن القضايا الكلامية التي ثار حولها جدل طويل في تاريخ الفكر الإسلامي قضية الجبر والاختيار ومحورها الإرادة، وقد ذهب المعتزلة إلى القول بوجود إرادة ـ بمعنى مشيئة ـ للإنسان تجعله مستحقاً على ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة فالعبد قادرٌ، خالقٌ لأفعاله خيرها وشرها، ولقد استدل المعتزلة بآياتٍ قرآنية كثيرة

---

(6) ابن قتيبة ـ أبو عبد الله محمد بن مسلم، تأويل مشاكل القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر ـ دار التراث ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ـ 1973 (ص 132 ـ ص 133).

(7) لسان العرب، جمال الدين محمد بن منظور، الجزء الثالث، مادة: رَوَدَ ـ دار صادر ـ بيروت.

(8) د. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء الأول، مادة: الإرادة ـ دار الكتاب اللبناني ـ 1982.

يوحي ظاهرها على الأقل بأن للإنسان مشيئة أو إرادة مستقلة فيما يتعلق بأفعاله نحو قوله تعالى: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب﴾، [سورة الشورى، الآية: 20]؛ ونحو قول عز وجل: ﴿وقل الحقُّ من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر...﴾، [سورة الكهف، الآية: 29]. ولقد فَرَّقَ المعتزلة بين مجال الفعل الإنساني وهو الفعل الذي يستحق المدح والذم (أي الثواب والعقاب)، وبين (الفعل الإلهي) وهو الذي لا دخل للإنسان فيه كالولادة والموت، وقالوا إن الله قد جعل لعباده مشيئة في المجال الأول، وهو مجال الفعل الإنساني ولم يجعل لهم مشيئة في المجال الثاني (الفعل الإلهي)[9].

وأوضح تعبير عن هذا الموقف في أصوله المعتزلية الأولى، قول واصل بن عطاء: (إنه لا يجوز أن يريد الله من العباد خلاف ما يأمر، ويحتم عليهم شيئاً ثم يجازيهم عليه، فالعبد هو الفاعل للخير والشر والإيمان والكفر والطاعة والمعصية، وهو المجازى على فعله، والرب تعالى أقدره على ذلك كلّه)[10].

أما أهل السنة، فقد ذهبوا إلى القول بأن كل ما جرى على العبد من المعاصي فهو خلق من الله تعالى، وهو عدل منه سبحانه ومعصية من العبد. وكل ما جرى من العبد من الطاعات فهو خلق من الله تعالى، وهو من الله فضل. وهما من العبد طاعة ومعصية، ومن الله فضل وعدل[11].

أما من الجانب الفلسفي والنفسي، فإن للإرادة تعريفات متعددة يورد طائفة منها دكتور جميل صليبا في معجمه الفلسفي، فهو يشير مثلاً إلى أن الإرادة عند بعض الفلاسفة هي الفاعلية الدائمة المتجهة إلى جهة معينة، وإن كانت لا شعورية...[12].

---

(9) د. علي فهمي خشيم، النزعة العقلية في تفكير المعتزلة، منشورات دار مكتبة الفكر للطباعة والتوزيع والنشر ـ طرابلس ـ ص 61.

(10) محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل، تخريج محمد بدران ـ طبعة أولى مطبعة الأزهر.

(11) أنظر د. علي فهمي خشيم، النزعة العقلية في تفكير المعتزلة، منشورات دار مكتبة الفكر ـ طرابلس.

(12) د. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء الأول، مادة: إرادة ـ دارة الكتاب اللبناني ـ 1982.

وقد ذهب بعض الفلاسفة إلى أن للإرادة مظاهر عدة، فهناك إرادة الحياة، وعند الفيلسوف شوبنهاور، المبدأ الكلي للجهد الغريزي الذي يحقق به الإنسان مثالَ نوعه. . وهناك إرادة القوة، وهي التي نادى بها الفيلسوف نيتشه الداعي إلى الإنسان المتفوق.

وهناك إرادة الشعور، وهي عند الفيلسوف فويّه، وتعني وجود نزعة أساسية عند الكائن الحي إلى إرجاع كل شيء إلى ذاته، وشعوره بأنه مركز الجاذبية.

وإلى جانب هذه التعريفات الفلسفية المختلفة للإرادة، يورد د. جميل صليبا في بحثه القيم عن الإرادة طائفة أخرى من الآراء للمفكرين والفلاسفة حول الإرادة، ومنها تفريق بعضهم بين الإرادة والاختيار، والإرادة والمشيئة[13].

أما عند المتصوفين، فإن الإرادة هي ابتداء الكد وترك الراحة وهي المرحلة التي يبلغها المتصوف، فيصير (مريداً) ويقول الجنيد في هذا الصدد (الإرادة أن يعتقد الإنسان الشيء ثم يعزم عليه، ثم يريده، ولا تكون إلا بعد صدق النية) وهي - أي الإرادة: (الإقبال بالكلية على الحق والإعراض عن الخلق وابتداء الحكمة)[14].

وأخيراً، بَيَّنَ علماء الاحياء أنَّ الجهاز العصبي عند الحيوانات الفقرية ومنها الإنسان - يتكون من قسمين هما الجهاز العصبي المركزي أو الإرادي والذي يستطيع الإنسان بواسطته التحكم في عضلات يديه ورجليه وتحريكها في جميع الاتجاهات، والجلوس والوقوف والمشي وغيرها من الحركات، كما يتحكم هذا الجهاز في ردود الفعل المنعكسة. أما القسم الثاني فهو الجهاز العصبي اللاإرادي ويتحكم هذا الجهاز في تنظيم الدورة الدموية، وضغط الدم، وضربات القلب، والتنفس والهضم وغيرها من العمليات الحيوية التي لا يستطيع الإنسان التحكم فيها إرادياً[15].

---

(13) المرجع السابق.

(14) المرجع السابق.

(15) المرجع السابق.